١١

القرآن فى المحافل

لعلك أيها القارىء قد حضرت حفلة عُرس أو ليلة مأتم أو مجلساً من المجالس التى يُتلى فيها القرآن الكريم فرأيت على المِنصّة قارئاً من أولئك الذين هم آفة القرآن وأنصار الشيطان . يتهيئون للقراءة ، لا بالاستعاذة والبراءة . بل بكثرة المخط والتفل . وشدة الحرص على النعل ، يرفعونها فى أوجه السامعين ، ثم يستوثقون منها باليمين وربما كانت من سقط المتاع حتى لا تباع . فإذا بدأ رأيت وجهاً ينبسط وينقبض ، وكفاً يرتفع وينخفض وصُدْغاً يُصفع ، وأنفاً يُقرع ، وكأنما يُنزع ، وأذناً يجعل فيها الإصبع ، وكأنه لهول ما يسمع ، وإذا لم يشقّ على بصرك المنظر ورأيت القارىء عند كل وقفة رأيت نَفَساً منقطعاً ، ووجهاً مُمْتَقِعاً [١] . وأوداجاً منفوخة ، وخِلقة ممسوخة . ومخنوقاً يجود بالحَوْباء [٢] ، وقد انقطع منه الرجاء

أما القراءة فحسبك أنها قراءة جاهل لمعانى ما يقول . فتهويل ، فى مقام التسهيل . وتهوين ، عند ذكر المنافقين . وتطريب ، فى آيات التعذيب ونشيج [٣] ، فى قراءة (مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) . وتشكيك وترديد ، فى آيات التوحيد . وتهكم ، عند قراءة (وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ)

---

(١) متغيراً (٢) بقية الروح (٣) صوت البكاء

وقصارى القول أنى لم أر قوما انصرفوا عن فهم ما يقولون كما انصرف المتغنون بالقرآن عن تعرُّف معانيه مع أن القرآن مرتزقهم الوحيد وهم إلى جانب ذلك أفرغ الناس بالا ، لو سهر أحدهم أربع ليال فى الشهر لكفاه دخلها مؤونة السعى والكد . فما بالهم لا يهتمون بتكميل أنفسهم والتفقه فى دينهم ، والتخلّى عن مرذول عاداتهم ، والاجتهاد فى تحسين أدائهم . حتى تتجلى معانى ما يقرءون من الآيات البينات فيتذكر الغافل ، ويتعلم الجاهل . ولكنهم قوم شغلهم اللعب بالسُبَح وقضاء ساعات النهار أمام حوانيت الزيّاتين والخيّاطين

١٢

القرآن فى المحافل أيضا

قد وصفنا فى كلمتنا السابقة ما يكون من شأن عامة القرّاء للقرآن . وأولئك هم الذين لا يعرفون إلا قراءة واحدة هى قراءة حفْص المشهورة بمصر وأكثرِ بلاد الإسلام

أما خاصة القراء — جنّبك الله سماعهم وكفاك عناءهم — فهم الذين يقرءون بالسَبْع أو العشر أو الأربعَ عشرةَ قراءة . . . حقاً إنّ القرآن قد روى بهذه الروايات وقرأها النبى صلى الله عليه وسلم فهى حق لا شك فيه وإن كان فيها القوىّ والضعيف والفاضل والمفضول . وقد شُرعتْ تخفيفاً على الناس لتعدد لهَجات العرب ، إذ لم يكن يسهل عليهم الأداء بوجه واحد . ونحن نرى أن أكثر هذه القراءات لا حاجة إليه اليوم لأن لغاتها التى تنطبق عليها قد دُثِرت ومات أهلها . ولكننا لا نرى بأساً من تعلمها وتفهمها وأن ينفرد منا جماعة بحِذْقها لتكون علْماً وتاريخاً يمثّل اللهَجاتِ العربيةَ المختلفةَ ولنعرف منها مآخذ الأحكام الدينية التى كان لاختلاف القراءات أثر ظاهر فى اختلافها . فأما أنْ يتناول القراء هذه القراءات فى الحفلات العامة بين يدى النبىّ والفهيم ، والحقير والعظيم ، فذلك امتهان للقرآن وتضييع لما له من جلال . وما لطالب العظة؟ نكلفه سماع تلك المدود والمطوط . وهذا التفخيم والترقيق . وهذه الإمالة والإزالة ، وذلك الوصل والقطع ، والتفريق والجمع . وقراؤنا

أخفتَ اللهُ أصواتهم يبالغون ويغالُون ، ويَزيدون ويَنقصون جرياً مع النغم البارد . المنخفض منه والصاعد . حتى أصبحت قراءتهم ضُحْكة الضاحك . ولأنهم جازاهم الله قد علموا أن جمع القراءات على مثل ما هم عليه ينافى الوقار ، وتضيع معه العظة والاعتبار ، قصروه على الأفراح ، والليالى الملاح .

وقد مضت مدة والقراء يرتكبون هذا المنكر ، حتى استُفتى شيخ المقارئ فأنكر . ثم قام ابنه الشيخ أبو بكر الحسينى من أفاضل علماء الأزهر فألّف كتاباً نقل فيه النصوص التى تحرّم جمع القراءات إلا فى مقام التعليم والتلقين . والغريب أن هذه الضجّة تقوم حول كتاب الله ولا يعلم الناس من أمرها شيئاً . فهل أَهملت الصحف ؟ أم هل قصّر العلماء فى تبليغها حتى تؤذّن [1] فى الناس .

وأنا اليوم بعد أن قرأت كتاب (الآيات البينات . فى حكم جمع القراءات) لو حضرت مجلساً يرتكب فيه القراء هذا المنكر لأسكتّ القارئ وكنت بذلك أُبطل بدعة وأُميت ضلالة

(١) تخبرهم

١٣

ساعة بين كتب الفقه

لى غرام بمطالعة كتب الفقه . فإن فيها إلى جانب الفائدة الدينية استمتاعاً بذلك الخيال الذى يَهيم الفقهاء فى أوديته بفرض مالا يكون وتوقّع مالا يحصل . وهو خيال ليس خيال الشعراء بجانبه شيئاً مذكوراً ، ولا أمراً خطيراً ، لأن الشاعر فى غالب أمره لايزيد على أن يبالغ فى تصوير الحقيقة بما لايخرج عن دائرة الإمكان ، ولا ينكره العيان . أما علماء الدين أجزل الله ثوابهم فهم يتغالون فى الخيال ، ويغرقون فى المبالغة حتى ينتهوا إلى الإحالة. وإذا أعياك أن تعدّ من كلام الشعراء نظائر كثيرة لقول أبى نُوَاس .

وأَخفْتَ أَهْلَ الشّرْكِ حتى إنَّه　　لتخافك النُّطَفُ التى لم تُخْلَقِ

فإنك واجد فى كل صفحة من كتب اللغة أمثلة هى أدخل فى الغرابة وأقرب إلى الاستحالة . وأنا أنقل للقارىء الكريم ما علِق بالذاكرة من مطالعة اليوم

(فى باب الطلاق) — كل ما كان من مادة طلق ولو بالتهجى أو بالألفاظ المصحّفة كتلاق وتلاك وتلاغ وطال (فأن القاف حذفت ترخيما) يقع به الطلاق ـ ولو قال لامرأته رأسك طالق أو نصفك أو ثلثك أو ربعك .طَلُقَتْ ـ ولو قال لزوجاته الأربع أوزّع بينكن تطليقة لكل ربعها وقع على كل منهن طلقة واحدة — ولو قال لزوجته أنت طالق ثلاثة أنصاف تطليقتين يقع ثلاث طلقات — ولو قال ثلاثة أنصاف تطليقة تقع ثنتان — ولو قال أنت

طالق نصف تطليقة وربع تطليقة وخمس تطليقة وقع ثلاث طلقات — ولو قال نصف تطليقة وربعها وخمسها وقعت واحدة — ولو قال لها أنت طالق فى اليوم غداً أو غداً فى اليوم اعتبر الوقت الذى نطق به أولا — ولو قال أنت طالق إن لم أطلقك وقع الطلاق فى آخر ساعة من حياته أوحياتها — ولو قال أنت طالق إذا لم أطلقك لا يقع شىء

(فى باب الصلاة) — إذا اجتمع قوم للصلاة يقدّم للامامة الأعلمُ ثم الأحسن قراءة ثم الأسن ثم الأحسن خلقاً ثم الأجمل خلقة ثم الأشرف نسباً ثم الأحسن صوتاً ثم الأحسن زوجة ثم الأكبر رأساً ثم . . .

(فى باب البيع) — لايجوز بيع العاج ولا الأوانى المتخذة منه ولا بيع العود والمزامير ولا بيع الصور المصنوعة من الطين التى تباع للأطفال فى الأعياد . وكسرها واجب شرعاً ! !

١٤
ساعة بين كتب الحديث

كذلك لى نظرات فى كتب الحديث أتلمّس فيها حكمة النبوة وأستشف منها صدق الجهاد فى إعلاء شأن الدين . وتثبيت دعائم اليقين . أرى فيها عقلاً بشريًا نشأ فى الصحْراء ، حيث شَظَفُ العيش بل الشقاء . فى أيام الجهالة الجهْلاء ، والفتن العمياء . قام يدبّر لهذا العالَم الأمر فيُحكم التدبير ، ويسوسه فيحسن السياسة . وينظر إلى المستقبل البعيد وكأنّه كان . فيصف منه الزمان والمكان . . حقًا إنه لملهَم وإن الروح الأمين ليشدُّ أَزْره ، ويتولى أمره .

لهذا وللبلاغة العربية فى أبهى من الحُلل ، وألذ من النهَل [1] . أردد الطرف فى كتب الحديث

ولكن قومًا لا يتركون أديمًا صحيحًا قد اعتدوا على هذا النور الباهر يحاولون إطفاءه بالأفواه ، ويأبى الله . تقوّلوا على محمد صلى الله عليه وسلم ما لم يقل وادعوا ما لم يكن . وأباَوْا فى هذا الافتراء ، كل بلاء . فشغلوا رجال الدين بتزييف هذا البَهْرَج [2] فكان من عملهم علم الحديث . وإليك طائفةً مما زيفوه حتى لا يدخل عليك الشك فيها :

أَخِرّوهن من حيث أخّرهن الله (يعنى النساء) — أبو حنيفة سراج أمّتى — إذا عطِس الرجل عند الحديث فهو صدق — اشتكيتُ عينى فقال لى

(١) النهل أول الشرب ويضرب به المثل فى اللذة والاستمتاع (٢) البهرج الباطل

جبريل انظر فى المصحف فإنى اشتكيتُ عينى فشكوت إلى ربى فقال انظر فى المصحف — أكل السمك يُذهب الحسد — أكل الهريسة يقوّى الظهر — أنا مدينة العلم وعلىّ بابها — أنفق ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب — إن الله طهّر قوماً بالصلع فى رءوسهم وإن علياً لأوّلهم — أحسن ما أُجرتم عليه كتاب الله — اذكروا محاسن موتاكم وكُفُّوا عن مساوئهم — من التواضع أن يشرب الرجل سُؤْر أخيه ومن شرب سؤر أخيه ابتغاء وجه الله تعالى رُفِعَتْ له سبعون درجة ومُحيتْ عنه سبعون خطيئة وكُتب له سبعون حسنة — ربيع أُمّتى العنب والبِطيخ — لو تعلم أُمّتى ما لهم فى الحُلْبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً — اتركوا الترك ما تركوكم — من لم يكن عنده صدقة فليأمن اليهود فأنها صدقة — تختموا بالياقوت فأنه ينفى الفقر

١٥

حنبلى !!

مَنْ منّا لايذكر بجانب هذا الاسم شدةَ التحرّج والتأثّم والتضييق الآخذ بالخناق ، البالغ بالروح إلى التّراقى . وما دخل علينا هذا الزعم إلاّ من ناحية ظننا أن أحمد بن حَنْبَل رضى الله عنه لم يجعل للهوادة سبيلا فى مذهبه فصيَّر طريق الله حَسَكا وسَعْدانا[1]

والحق أن الشهرة من الحظ فقد طالما رأينا من اشتهر باللين وهو شديد ، وعرف بالعدل وهو جبار عنيد . ووُسم بالشجاعة وهو رِعْديد . ولقد جرت هذه الحال على كل شىء حتى لقد قال الجاحظ : «فكم من بيت شعر قد سار وأجود منه مقيم فى بطون الدفاتر ، لاتزيده الأيام إلا خمولا . كما لاتزيد الذى دونه إلا شهرةً ورفعة» . .

ذلك هو الحظ الذى أساء إلى الأمام ابن حنبل فى نظر كثير من المسلمين فتحاشوا مذهبه لما توهموا فيه من شدة وما قدّروا للآخذ به من عناء . وقد أُتيح لى أن أنظر فى كتب المذهب فلم أجد فيما وقع عليه بصرى تلك الصورة التى نتخيلها ، بل هو يجرى على رسم بقية المذاهب إذا كان فى بعض مسائله شدة كان إلى جانبها لين فى غيرها . وإلى القارىء أمثلة من ذلك اللين الذى لم يخطر على بالنا أن يحويه مذهب هذا الإمام الجليل

كل ما يؤكل لحمه ولم يكن أكثر علفه النجاسة فبوله وروثه وكل

(١) الحسك والسعدان نوعان من شجر الشوك

ما يخرج منه طاهر — وما لا يؤكل لحمه مما هو فى قدر الهرة فى الخلقة أو دونها كالنِّمس والنِّسْناس فكل ذلك منه طاهر أيضاً — وبول الغلام الذى لم يأكل الطعام بشهيّة يكفى فى تطهير ما يقع عليه أن يُنْضَح بالماء — وسن الفيل — وهو نجس عند الشافعى على أىّ حال — طاهر عند الإمام أحمد إذا أُخذ والفيل حىّ — وجمع صلاتى الظهر والعصر أو المغرب والعشاء جمع تقديم أو تأخير لا يجيزه الشافعى إلا للمسافر، ويشترط الإمام مالك أن يكون السفر برًّا لا بحرًا وأن يكون لإدراك أمر مُهِمّ وفى غير معصية. أما الإمام أحمد فيجيزه للمسافر وللمريض المقيم وللمرضع وللعاجز عن معرفة الوقت كالأعمى وللخائف على نفسه أو ماله أو حَرَمه

أما تلك المسألة التى طارت بها شهرة هذا المذهب فى الشدة فلعلها مسألة فساد الصلاة إذا مر الكلب الأسود بين يدى المصلى لقوله عليه السلام: الكلب الأسود البهيم شيطان إذا مر بين يدى المصلّى فسدت صلاته

١٦

توكلت على الله

لقد ساء فهمنا لكلمات جاء بها الإسلام، كالتوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر. فجنينا من سوء فهمنا خطأ فى الاعتقاد، وسقوطاً فى الهمة، وضعة فى الحال، وفشلا فى الأعمال. وأسأنا إلى الدين فيما تجب به المباهاة، وشوهنا منه ما جمله به الله.

فالتوكل على الله كلمة حق يراد بها اليوم باطل، يقولها منا كل غافل عن النظام البديع الذى بنى عليه الله تعالى هذا الكون، فربط الأسباب بمسبباتها، وعلق النتائج على مقدماتها، كما يقولها كل كسلان قد خارت قوته، وسقطت مروءته. فأغلق عليه بابه، وقاسى من الطوى [1] عذابه. ونسى قوله تعالى (فامْشُوا فى مَنَاكِبِهَا وَكُلوا مِنْ رِزْقِهِ)

فأما التوكل الذى فهمه سلفنا الصالح وجروا عليه فى أمر معاشهم ومعادهم وكانت من آثاره تلك الفتوح المبينة والدول القوية فهو أن تعتقد أن لكل شىء أسباباً لا يتم إلا بتحقيقها، فالسماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، والرزق لا يُساق عفواً لقاعد عنه، مبطل لوسائله، معطل لأسبابه. لأن ذلك عبث ينزه الله عن الرضا بوقوعه فى ملكه. ثم تعتقد إلى جانب ذلك أن هذه الأسباب كثيرة يظهر لك منها شىء ويختص الله بما يدق عن إدراكك ويتعاظم على قوتك وحيلتك ...

---

(١) عدم الأكل

فمعنى توكلك هو أن تستقصى ما تستطيع من الأسباب ، وتهيئ مايصل إليه علمك ، ويدلك عليه اختبارك . غيرَ مُدَّخر وُسْعاً ، ولا مُفَرِّط فى ذَرِيعة [١] . ثم تستعين اللهَ فيما خفِى عليك ، وتبتهل إليه فى المعونة على النجاح . فأذا أدّيتَ ما استطعت وأخلصت النية فى الاستعانة على مالم تستطع ، فقد توكلت على الله حق توكله ، وكنت جديراً أن يَكفُل لك النجاح ويرزقك كما يرزق الطير ، تغدو خِماصاً [٢] ، وتروح بِطاناً [٣]

(١) جمع خميص بمعنى ضامر البطن . والمراد جوعى (٢) جمع بطين بمعنى عظيم البطن . والمراد شبعى

١٧

« وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ »

(قرآن كريم)

كثير من الناس يفهمون هذه الآية الكريمة فهماً لا يليق بالأدب الواجب فى حق الله فهم يزعمون أن الغاية التى أرادها سبحانه من خلق الناس هى أن يستمتع بخشوعهم ويُعْجَب بعبوديتهم ، فهم لم يترفعوا بمولاهم عن درجة البشر فى الاستمتاع والتلهى والمباهاة بالاستعباد . حاشا لله أن يريد بخلق الناس عبثاً كهذا !!

والحق الذى يراد من الآية هو أنه خلق الناس فى هذه الدنيا لأغراض شتّى وإرادات سامية ، ليكون لهم فى الحياة شؤون وأعمال ؛ من حَرْث ونَسْل وتجارة وصناعة وتعليم وتهذيب وإثارة لكنوز الأرض وتنعم بخيراتها . ومن بين هذه الشؤون عبادة ربهم التى تكفُل لهم السعادة وتُجنِّبهم الشقاوة وتجعلهم إخواناً متحابِّين ، وشركاء متعاونين .

وشأن البليغ إذا كان من أغراضه غرض أظهر أو من أسبابه سبب أشرف أن يقصُر حكمه عليه ويظهر فى العبارة أنه هو المقصود لا غيره . يفعل ذلك مبالغة فى بيان فضله وتأكيداً لجليل أثره .

ففى الآية لما كانت العبادة هى أشرف شؤون الخلق وأهم أعمالهم

فى حياتهم لما يتصل بها من سعادتهم وشقاوتهم لم يذكر ماسواها فى القول وخصها بالعلة تشريفاً لقدرها وتفضيلا لمكانها .

أترى لو أن أباً قال لابنه فى مقام الحث على الفضيلة والحمل على مكارم الأخلاق . ماطلبتُ أن يكون لى أبناء إلاّ لأراهم مهذبين مؤدبين . فهل ترى أن هذا الأب لم يرد من ابنه أن يتخذه زينة حياته ، وظهيره فى مُلِمّاته ، وذِكره بعد مماته . لا ولكنه أغفل كل هذه المقاصد فى قوله ليفهمه أن الأدب هو أسمى هذه الغايات ، وأول تلك الأرادات

١٨
الدعاء

رأيت قوما ينكرون أمر الدعاء . ويدّعون أنه لا أثر له فى إزالة الكروب . وغفران الذنوب . ويستمسكون بأن المراد به فى كل ماورد من آى القرآن الكريم هو العبادة لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الدعاء العبادة وتلا قوله تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

وقد تتبعنا ما ورد من آى الكتاب فى ذلك فوجدناه قسمين أحدهما يدل على أن المراد بالدعاء العبادة كالآية السابقة ، والآخر صريح فى أنه مثل ما يكون منا حين يحزبنا خطب ويضيق أمامنا سبيل كقوله تعالى (فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَظْلُومٌ فَانْتَصِرْ) وقوله على لسان يحيى عليه السلام (رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا) وقوله على لسانه أيضاً (فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا)

هذا إلى أن الشرع الشريف قد سن الدعاء فى كثير من الأحوال كقنوت العشاء أو الصبح وصلاة الاستسقاء والجنازة وغيرها

كذلك نجد فى القرآن نفسه أن كثيراً من الأنبياء دعوا ربهم فاستجاب . كقوله تعالى (يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ

قَبْلُ سَمِيًّا) بعد دعائه السابق فى الآية قبلها . كذلك كان نبينا عليه الصلاة والسلام يدعو ربه بدعوات قد أُثِرَتْ عنه كما كان يتوجَّه إليه فى الأزمات التى صادفها فى حرب المشركين فكان الله يستجيب دعاءه ، ويحقّق رجاءه

فلا ينبغى لك أن يخالطك الشك فى نفع الدعاء وأن الله يفرّج به الهمّ (وَنُوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الكَرْبِ العَظِيمِ) ويحقق الرغائب ، وينجّى من المصائب (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فاسْتَجَبْنا لَهُ فَكَشَفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ)

غير أنه يجب أن نعتقد أن لإجابة الدعاء شروطاً يكون الدعاء بدونها لغواً لا يقدّم ولا يؤخر ولا تنفع به الوسيلة ولا تُغنى القربى . وأهم هذه الشروط وألزمها أن يكون العبد تائباً إلى ربه مؤدياً حقوقه رادًّا للمظالم ، كافًّا عن الأذى قد سلم الناس من يده ولسانه وأخلص لربه فى السر والعلانية فأما من لم يبرأ إلى الله من الذنوب ولم يقدّم الطاعة فأنه مهما بُحّ صوته ، أو علا نحيبه أو كثر تضرّعه فليس إلا مطروداً من رحمة الله . . . قيل لمالك بن دينار : ادع لنا ربك فقد أجهدنا القحط . فقال : إنكم تستبطئون المطر ، وأنا أستبطئ الحجارة ! !